أما الكافر والعياذ بالله فلَهُ مع النـار مرحلة ثالثة هي حَقُّ اليقين ، يوم يدخلها ويباشر حَرَّها ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢) فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (٩٤) إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (٩٥) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٩٦) ﴾ [الواقعة]

إذن : عندنا علْم اليقين ، وهو الصورة العلمية للنار ، والتي أخبرنا بها الحق سبحانه وتعالى ، وأن من صفات النار كذا وكذا وحذَّرنا منها ، ونحن في بحبوحة الدنيا وسعَتها . وعَيْن اليقين : في الآخرة عندما نمرُّ على الصراط ، ونرى النار رؤيا العين . ثم حَقُّ اليقين : وهذه للكفار حين يُلْقَوْن فيها ويباشرونها فعلاً .

وقد ضربنا لذلك مثلاً : لو قُلْتُ لك : توجد مدينة اسمها نيويورك وبها ناطحات سحاب ، وأنها تقع على سبع جزر ، ومن صفاتها كذا وكذا فأعطيك عنها صورة علمية صادقة ، فإنْ صدَّقتني فهذا علْم يقين . فإنْ مررنا عليها بالطائرة ورأيتها رأْيَ العين فهذا عَيْن اليقينَ ، فإنْ نزلت بها وتجولت خلالها فهذا حَقُّ اليقين .

إذن : فقوله تعالى : ﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا (١٠٠) ﴾ [الكهف] ليس كعرضها على المؤمنين ، بل هو عَرْض يتحقَّق فيه حَقُّ اليقين بدخولها ومباشرتها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا (١٠١) ﴾

أي : على أبصارهم غشاوة تمنعهم إدراك الرؤية ، ليس هذا وفقط ، بل ﴿ وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا (١٠١) ﴾ [الكهف]

والمراد هنا السمع الذي يستفيد منه السامع ، سَمْع العبرة

والعظة ، وإلا فآذانهم موجودة وصالحة للسمع ، ويسمعون بها ، لكنه سماعٌ لا فائدةَ منه ؛ لأنهم ينفرون من سماع الحق ومن سماع الموعظة ويسدُّون دونها آذانهم ، فهم في الخير أذن من طين ، وأذن من عجين كما نقول .

أما المؤمنون فيقول الحق تبارك وتعالى فيهم : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ .. (٨٣) ﴾ [المائدة]

إذن : فكراهية أولئك للمسموع جعلتهم كأنهم لا سَمْعَ لهم ، كما نقول نحن في لغتنا العامية : (أنت مطنش عنى) ، يعنى : لا تريد أنْ تسمعَ ، ومن أقوال أهل الفكاهة : قال الرجل لصاحبه : فيك مَنْ يكتم السرَّ ؟ قال : نعم ، قال : أعْطنى مائة جنيه ، قال : كأنّى لم أسمع .

ولذلك حكى القرآن عن كفار مكة قولهم : ﴿ لا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦) ﴾ [فصلت]

يعنى : شَوِّشُوا عليه ، ولا تُعطوا الناس فرصة لسماعه ، ولو أنهم علموا أن القرآن لا يؤثر في سامعه ما قالوا هذا! ، لكنهم بأذنهم العربية وملكَتهم الفصيحة يعلمون جيداً أن القرآن له تأثير في سامعه تأثيراً يملك جوانب نفسه ، ولابُدَّ لهذا العربي الفصيح أنْ يهتزَّ للقرآن ، ولابُدَّ أنه سيعرف أنه مُعجز ، وأنه غير قَوْل البشر ، وحتماً سيدعوه هذا إلى الإيمان بأن هذا الكلام كلام الله ، وأن محمداً رسول الله ؛ لذلك قال بعضهم لبعض محذراً : ﴿ لا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ .. (٢٦) ﴾ [فصلت]

وفي آية أخرى يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ

أثيم (٧) يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم (٨)﴾ [الجاثية]

وقد يتعدّى الأمر مجرد السماع إلى منع الكلام كما جاء في قوله تعالى : ﴿ **ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم في أفواههم** .. (٩)﴾ [إبراهيم]

فليس الأمر منع الاستماع ، بل أيضاً منع الكلام ، فربما تصل كلمة إلى آذانهم وهم في حالة انتباه فتؤثر فيهم ، أي منعوهم الكلام كما يُقال : اسكت ، أو أغلق فمك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ ۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا (١٠٢) ﴾

قوله تعالى : ﴿ **أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء** .. (١٠٢)﴾ [الكهف] يعني : أعموا عن الحق فظنوا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء ؟ وسبق أن تحدثنا عن كلمة (عبادي) وقلنا : إنهم المؤمنون بي المحبون لي ، الذين اختاروا مرادات الله على اختيارات نفوسهم ، وفرّقنا بين عبيد وعباد .

والكلام هنا عن الذين كفروا الذين اتخذوا عباد الله المقربين إليه المحبين له أولياء من دون الله ، كما قال تعالى : ﴿ **لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون** .. (١٧٢)﴾ [النساء]

فكيف تتخذونهم أولياء من دوني وتعاندونني بهم وهم أحبتي ؟

يقول تعالى : ﴿ **وقالت النصارى المسيح ابن الله** .. (٣٠)﴾ [التوبة]

ومنهم مَنْ قال : الملائكة بنات الله ، فكيف تتخذونهم أولياء من دون الله وهم لا يستنكفون أن يكونوا عباداً لله ، ويروْنَ شرفهم وعزَّتهم في عبوديتهم له سبحانه ، فإذا بكم تتخذونهم أولياء من دوني ، ويا ليتكم جعلتُم ذلك في أعدائي ، فهذا منهم تغفيل حتى في اتخاذ الشركاء ؛ لذلك كان جزاءَهم أنْ نُعدَّ لهم جهنم :

﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً (١٠٢) ﴾ [الكهف] والنُّزُل : ما يُعَدُّ لإكرام الضيف كالفنادق مثلاً ، فهذا من التهكّم بهم والسُّخرية منهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) ﴾

(قُلْ) أي : يا محمد ﴿ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (١٠٣) ﴾ [الكهف] الأخسر : اسم تفضيل من خاسر ، فأخسر يعني أكثر خسارة (أَعْمَالاً) أي : خسارتهم بسبب أعمالهم . وهؤلاء الأخسرون هم :

﴿ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) ﴾

وقد ضلَّ سَعْي هؤلاء ؛ لأنهم يفعلون الشر ، ويظنون أنه خير ، فهم ضالُّون من حيث يظنون الهداية . ومن ذلك ما نراه من أعمال الكفار حيث يبنون المستشفيات والمدارس وجمعيات الخير والبر ، ويُنَادون بالمساواة وغيرها من القيم الطيبة ، ويحسبون بذلك أنهم أحسنوا صُنْعاً وقدَّموا خَيْراً ، لكن هل أعمالهم هذه كانت لله ؟

الواقع أنهم يعملونها للناس وللشهرة وللتاريخ ، فليأخذوا أجورهم من الناس ومن التاريخ تعظيماً وتكريماً وتخليداً لذكْراهم .

ومعنى : ﴿ ضَلَّ سَعْيُهُمْ .. (١٠٤) ﴾ [الكهف] أي : بطُل وذهب ،

وكأنه لا شيءَ ، مثل السراب كما صوَّرهم الحق سبحانه في قوله :
﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا .. ﴿٣٩﴾ ﴾ [النور]

وهؤلاء لا يبخسهم الله حقوقهم ، ولا يمنعهم الأجْر ؛ لأنهم أحسنوا الأسباب ، لكن هذا الجزاء يكون في الدنيا ؛ لأنهم لما عملوا وأحسنوا الأسباب عملوا للدنيا ، ولا نصيبَ لهم في جزاء الآخرة .

وقد أوضح الحق سبحانه وتعالى هذه المسألة في قوله تعالى :
﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الشورى]

ومع ذلك يُبقي للكافر حَقَّه ، فلا يجوز لأحد من المؤمنين أنْ يظلمه أو يعتدي عليه ، وفي حديث سيدنا جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ قال : سمعت أن مُحدِّثاً حدَّث عن رسول الله بحديث أحببت ألاَّ أموت ، أو يموت هو حتى أسمعه منه ، فسألت عنه فقيل : إنه ذهب إلى الشام ، قال : فاشتريت ناقة ورحَلْتها[1] ، وسرْت شهراً إلى أنْ وصلتُ إلى الشام ، فسألت عنه فقيل : إنه عبد الله بن أُنَيْس ، فلما ذهبت قال له خادمه : إن جابر بن عبد الله بالباب ، قال جابر : فخرج ابنُ أُنَيْس وقد وَطِيء ثيابه من سرعته . قال عبد الله : واعتنقا .

قال جابر : حدِّثت أنك حدثتَ حديثاً عن رسول الله ﷺ : « إن الله ينادي يوم القيامة : يا ملائكتي ، أنا الملك ، أنا الديان ، لا ينبغي لأحد من أهل النار أنْ يدخلَ النار وله عند أحد من أهل الجنة حَقٌّ حتى أقصّه منه ، ولا ينبغي لأحد من أهل الجنة أنْ يدخلَ الجنة وله عند أحد من أهل النار حق حتى أقصَّه منه ، حتى اللطمة »[2] .

---

(١) ارتحل البعير : جعل عليه الرحل . ويقال : رحلت البعير أرحله رحلاً إذا علوته . [لسان العرب ـ مادة : رحل] .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٤٩٥) من حديث عبد الله بن أنيس رضي الله عنه .

فانظر إلى دقّة الميزان وعدالة السماء التي تراعي حقّ الكافر، فتقتصّ له قبل أنْ يدخل النارَ، حتى ولو كان ظالمه مؤمناً.

وفي قوله تعالى: ﴿ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (١٠٤)﴾ [الكهف] جاءت كلمة الضلال في القرآن الكريم في عدّة استعمالات يُحدّدها السياق الذي وردتْ فيه. فقد يأتي الضلال بمعنى الكفر، وهو قمة الضلال وقمة المعاصي، كما جاء في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٠٨)﴾ [البقرة]

ويُطلق الضلال، ويُراد به المعصية حتى من المؤمن، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا (٣٦)﴾ [الأحزاب]

ويُطلق الضلال، ويُراد به أنْ يغيب في الأرض، كما في قوله تعالى: ﴿أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ .. (١٠)﴾ [السجدة]

يعني: غبْنا فيها واختفينا.

ويُطلَق الضلال ويُراد به النسيان، كما في قوله تعالى: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ .. (٢٨٢)﴾ [البقرة]

ويأتي الضلال بمعنى الغفلة التي تصيب الإنسان فيقع في الذنب دون قصد. كما جاء في قصة موسى وفرعون حينما وكز[1] موسى الرجل فقضى عليه، فلما كلمه فرعون قال: ﴿فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (٢٠)﴾ [الشعراء]

---

(١) وكز: دفع وضرب. أي: ضربه بجُمْع يده الواحدة فمات. [القاموس القويم ٢/ ٣٥٤].

أى : قتلتُه حال غفلة ودون قصد ، ومَنْ يعرف أن الوكزة تقتل ؟ والحقيقة أن أجلَ الرجل جاء مع الوكزة لا بها . ويحدث كثيراً أن واحداً تدهسه سيارة وبتشريح الجثة يتبين أنه مات بالسكتة القلبية التى صادفتْ حادثة السيارة .

ويأتى الضلال بمعنى : ألاَّ تعرف تفصيل الشىء ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَىٰ (٧) ﴾ [الضحى] أى : لا يعرف ما هذا الذى يفعله قومه من الكفر .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا (١٠٥) ﴾

﴿ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ .. (١٠٥) ﴾ [الكهف] والآيات تُطلَق ثلاثة إطلاقات ، وقد كفروا بها جميعاً وكذَّبوا ، كفروا بآيات الكون الدالة على قدرة الله ، فلم ينظروا فيها ولم يعتبروا بها ، وكفروا بآيات الأحكام والقرآن والبلاغ من رسول الله ، وكذلك كفروا بآيات المعجزات التى أنزلها الله لتأييد الرسل فلم يصدقوها . إذن : كلمة : ﴿ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ .. (١٠٥) ﴾ [الكهف] هنا عامة فى كل هذه الأنواع .

(ولقائه) أى : وكفروا أيضاً بلقاء الله يوم القيامة ، وكذَّبوا به ، فمنهم مَنْ أنكره كلية فقال : ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٨٢) ﴾ [المؤمنون]

ومنهم مَن اعترف ببعْث على هواه ، فقال : ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا (٣٦) ﴾ [الكهف]

ومنهم مَنْ قال : إن البعث بالروح دون الجسد وقالوا في ذلك كلاماً طويلاً ، إذن : إما ينكرون البعث ، وإما يُصوِّرونه بصورة ليست هي الحقيقة .

ثم يقول تعالى : ﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ .. (١٠٥)﴾ [الكهف] أي : بَطُلت وذهب نفعُها ﴿فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥)﴾ [الكهف]

وقد اعترض المستشرقون على هذه الآية ﴿فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥)﴾ [الكهف] وقالوا : كيف نُوفِّق بينها وبين الآيات التي تثبت الميزان ، كما في قوله تعالى : ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ (٤٧)﴾ [الأنبياء]

وقوله تعالى : ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (٩) وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ (١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ (١١)﴾ [القارعة]

ونقول : إن العلماء في التوفيق بين هذه الآيات قالوا[1] : المراد بقوله تعالى : ﴿فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥)﴾ [الكهف] جاءتْ على سبيل الاحتقار وعدم الاعتبار ، فالمراد لا وزنَ لهم عندنا أي : لا اعتبارَ لهم ، وهذه نستعملها الآن في نفس هذا المعنى نقول : فلان لا وزنَ له عندي . أي : لا قيمة له .

وبالبحث في هذه الآية وتدبرها تجد أن القرآن الكريم يقول : ﴿فَلا نُقِيمُ لَهُمْ .. (١٠٥)﴾ [الكهف] ولم يقُلْ : عليهم ، إذن : الميزان

---

(١) قال الإمام أبو يحيى زكريا الأنصاري في كتابه « فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن » (ص ٢٥١) : « قوله تعالى : ﴿فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥)﴾ [الكهف] . أي : قدراً لحقارتهم ، وليس المراد فلا ننصب لهم ميزاناً لأن الميزان إنما ينصب ليوزن به الحسنات في مقابلة السيئات ، والكافر لا حسنة له » .

موجـود ، ولكنه ليس فى صـالحهم ، فـالمعنى : لا نقـيم لهم ميـزاناً لهم ، بل نقيم لهم ميزاناً عليهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ ﴾

(ذلك) أى : ما كان من إحباط أعمالهم ، وعدم إقامتنا لهم وزناً ليس تجنِّياً منَّا عليـهم أو ظلماً لهم ، بل جزاءً لهم على كفـرهم فقوله ﴿ بِمَا كَفَرُوا .. ﴿١٠٦﴾ ﴾ [الكهف] أى : بسبب كفرهم .

﴿ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ ﴾ [الكهف] فقـد استـهزأوا بآيات الله ، وكلما سـمعوا آية قالوا : أسـاطير الأولين : ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ [القلم]

وكـذلك لم يَسْلَم رسـول الله ﷺ من سخـريتـهم واستـهـزائهم ، والقرآن يحكى عنهم قولهم لرسول الله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ ﴾ [الحجر] فقولهم ﴿ نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ .. ﴿٦﴾ ﴾ [الحجر] أى : القرآن وهم لا يؤمنون به سُخرية واستهزاءً .

وفى سورة « المنافقون » يقول القرآن عنهم : ﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا .. ﴿٧﴾ ﴾ [المنافقون] فقولهم ﴿ رَسُولِ اللَّهِ .. ﴿٧﴾ ﴾ ليس إيماناً به ، ولكن إمَّا غفلة منهم عن الكذب الذى يمارسـونه ، وإما سُخْـرية واستهـزاءً كما لو كـنتَ فى مجلس ، ورأيتَ أحدهم يدَّعِى العلم ويتظاهر به فتقول : اسألوا هذا العالم .

وفى آية أخرى يقول سبحـانه عن استهزائهم برسول الله : ﴿ وَإِن

يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ[1] بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (٥١) ﴾ [القلم]

ثم يتحدث القرآن عن المقابل لهؤلاء ، فيقول :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا (١٠٧) ﴾

قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا .. (١٠٧) ﴾ [الكهف] سبق أن قلنا : إن الإيمان هو تصحيح الينبوع الوجدانى العقدى لتصدر الأفعال مناسبة لإيمانك بمَنْ شرّع ، ومن هنا كان الإيمان أولاً وشرطاً لقبول العمل ، وإلاَّ فهناك مَنْ يعمل الخير لا من منطلق إيمانى بل لاعتبارات أخرى ، والنية شَرْط لازم فى قبول العمل .

لذلك يعاقب الله تعالى مَنْ يعمل العمل لغير الله ، يعاقبه بأنْ ينكره صاحبه ويجحده ويكرهه بسببه ، بدل أنْ يعترفَ له بالجميل . ومن هنا قالوا : (اتق شَرَّ مَنْ أحسنتَ إليه) ؛ وهذا قول صحيح لأنك حين تُحسن إلى شخص تدكُّ كبرياءه ، وتكون يدك العليا عليه ، فإذا ما أخذ حظاً من الحياة وأصبح ذا مكانة بين الناس فإن كان غير سَوِىِّ النفس فإنه لا يحب مَنْ تفضل عليه فى يوم من الأيام ودَكَّ كبرياءه ؛ لذلك تراه يكره وجوده، ولا يحب أنْ يراه ، وربما دبَّر لك المكائد لتختفى من طريقه ، وتُخلى له الساحة ؛ لأنك الوحيد الذى يحرجه حضورك .

لذلك ، مَنْ عمل عملاً لغير الله أسلمه الله لمن عمل له ، فليأخذ منه الجزاء ، وإذا بالجزاء يأتى على خلاف ما تنتظر ، فقد فعلت له

(١) أزلقه : جعله يزلق (تزل قدمه) كأن أبصارهم أدوات إزلاق لشدة حسدهم وحقدهم . [القاموس القويم ١/٢٨٩] .

ليُكرمك فإذا به يُهينك ، فعلْتَ له ليحترمك فإذا به يَحْقرك ، فعلتَ له ليُواليك فإذا به عدو لك ؛ لذلك يقولون : العمل لله عاجل الجزاء ، أما العمل لغير الله فغير مضمون العواقب ، فقد يُوفى لك وقد لا يُوفى .

ثم أردف الحق ـ سبحانه وتعالى ـ الإيمانَ بالعمل الصالح ؛ لأن العمل الصالح لا بُدَّ له أن ينطلق من الإيمان ويصدر عنه ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. (١٠٧) ﴾ [الكهف]

﴿ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. (١٠٧) ﴾ [الكهف] يعني : عمل الشيء الصالح ، فإن كان الشيء صالحاً بنفسه فليتركه على صلاحه لا يفسده ، أو يزيده صلاحاً ، كبئر الماء الذي يشرب منه الناس ، فإمّا أن تتركه على حال صلاحه لا تُلقي فيه ما يسدُّه أو يُفسده فتُخرج الصالح عن صلاحه ، وإما أنْ تزيده صلاحاً فتُضيف إليه ما يُحسِّن من أدائه ويُزيد من كفاءته كأنْ تبني حوله سوراً يحميه أو غطاءً يحفظه ، أو آلةَ رفع تُيسِّر على الناس استعماله .

والفرد حين يعمل الصالحات تكون حصيلته من صلاح غيره أكثرَ من حصيلته من عمله هو ؛ لأنه فَرْد واحد ، ويستفيد بصلاح المجتمع كله ، ومن هنا لا ينبغي أنْ تستثقلَ أوامر الشارع وتكليفاته ؛ لأنه يأخذ منك ليعطيك وليُؤمِّن حياتك وقت الحاجة والعَوَز ، وحينما يتوفَّر لك هذا التكافل الاجتماعي تستقبل الحياة بنفس راضية حال اليُسْر ، مطمئنة حال العُسْر .

وساعةَ أنْ يأمرك الشرع بكفالة اليتيم وإكرامه ، فإنه يُطمئنك على أولادك من بعدك ، فلا تحزن إنْ أصابك مكروه ؛ لأنك في مجتمع متعاون ، سيكفل أولادك ، بل قد يكون اليتيم في ظل الإسلام وتعاليمه أسعَد حظاً من حياته في رعاية أبيه ؛ لأنه بموت أبيه يجد

المؤمنين جميعاً آباءً له ، وربما كان أبوه مشغولاً عنه في حياته لا يُفيده بشيء ، بل ويصدُّ عنه الخير حيث يقول الناس : أبوه موجود وهو يتكفّل به .

لذلك يقول أحمد شوقي[1] :

لَيْسَ اليَتيمُ مَنِ انتهَى أبَواهُ مِنْ هَمِّ الحياةِ وخلَّفاهُ ذَليلا
إنَّ اليَتيمَ هُوَ الذي تَلْقَى لَهُ أُمّــاً تخلَّتْ أوْ أباً مَشْغُولا

وقوله تعالى : ﴿ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً (١٠٧) ﴾ [الكهف]

الفردوس : هو أعلى الجنة ، والنُّزُل : ما يُعده الإنسان لإكرام ضيفه من الإقامة ومُقوِّمات الحياة وترفها ، والإنسان حينما يُعدُّ النزُلَ لضيفه يعده على حَسْب قدراته وإمكانياته وعلمه بالأشياء ، فما بالك إنْ كان المعدّ للنُّزُل هو الله تبارك وتعالى ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا (١٠٨) ﴾

وخلود النعيم في الآخرة يُميِّزه عن نعيم الدنيا مهما سَمَا ، كما أن نعيم الدنيا يأتي على قَدْر تصوُّرنا في النعيم وعلى حَسْب قدراتنا ، وحتى إنْ بلغنا القمة في التنعُّم في الدنيا فإننا على خَوْف دائم من زواله ، فإما أنْ يتركك النعيم ، وإما أن تتركه ، وأما في الجنة فالنعمة خالدة لا مقطوعة ولا ممنوعة ، وأنت مُخلَّد فيها فلن تتركك النعمة ولن تتركها .

(١) هو : أشهر شعراء العصر الحديث ، يلقب بأمير الشعراء ، مولده ووفاته بالقاهرة ، نشأ في ظل البيت المالك بمصر . ولد ١٨٦٨ م . تابع دراسة الحقوق في فرنسا . من آثاره « الشوقيات » « مجنون ليلى » « مصرع كليوباترا » توفي عام ١٩٣٢ م عن ٧٥ عاماً . (الأعلام للزركلي ١ / ١٣٦ ، ١٣٧) .

لذلك يقول تعالى بعدها : ﴿ لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ ﴾ [الكهف] أى : لا يطلبون تحوُّلهم عنها إلى غيرها ، لأنه لا يُتصوَّر فى النعيم أعلى من ذلك .

ومعلوم أن الإنسان لديه طموحات ترفيهية ، فكلما نال خيراً تطلع إلى أعلى منه ، وكلما حاز متعةً ابتغى أكثر منها ، هذا فى الدنيا أما فى الآخرة فالأمر مختلف ، وإلا فكيف يطلب نعيماً أعلى من نعيم الجنة الذى قال الله عنه : ﴿ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [البقرة]

أى : كلما رزقهم الله ثمرةً أتتْهم أخرى فقالوا : لقد رُزِقْنا مثلها من قبل ، وظنّوها كسابقتها ، لكنها ليست كسابقتها بل بطَعم جديد مختلف ، وإنْ كانت نفس الثمرة ، ذلك لأن قدرة الأسباب محدودة ، أما قدرة المسبِّب فليست محدودة .

والحق سبحانه وتعالى قادر على أن يُخرج لك الفاكهة الواحدة على ألف لَوْن وألف طَعْم ؛ لأن كمالاته تعالى لا تتناهى فى قدرتها ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [البقرة] فالثمر واحد متشابه ، أمَّا الطعم فمختلف[1] .

والإنسان منّا ليشقَّ طريقه فى الحياة يظل يتعلّم ، ليأخذ شهادة مثلاً أو يتعلم مهنة ، ويظل فى تعب ومشقة ما يقرب من خمسة وعشرين عاماً من عمره أملاً فى أن يعيش باقى حياته المظنونة مرتاحاً هانئاً ، وهَبْ أنك ستعيش باقى حياتك فى راحة ، فكم سيكون الباقى منها ؟

---

(١) قال ابن عباس : ليس فى الدنيا مما فى الجنة شىء إلا الأسماء . أورده السيوطى فى « الدر المنثور » (٩٦/١) وعزاه لمسدد وهناد فى الزهد وابن جرير وابن المنذر والبيهقى فى البعث .

أمـا الراحـة الأبدية في الآخـرة فـهي زمن لا نـهـايةَ له ، ونعـيم خـالد لا ينتهى ، ففى أىِّ شىء يطمع الإنسان بعد هذا كله ؟ وإلى أىِّ شىء يطمح ؟

لذلك قال تعالى بعدها :

﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ ﴾

لأن قدرتـه تعالى لا حـدود لها ، وما دامـت قدرته لا حدود لـها فالمقدورات أيضاً لا حدود لها ؛ لـذلك لو كان البحر مداداً أى : حبْراً يكتب به كلمـات الله التى هى (كُنْ) التى تبـرز المقـدورات ما كـان كافياً لكلمات الله ﴿ وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ ﴾ [الكهف] أى : بمثل البحر .

ونحن نقول مثلاً عن السلعة الجـيدة : لا يستطيع المصنع أنْ يُخرِج أحسن من هذه ، أمـا صنعة الله فـلا تقف عند حد ؛ لأن المصـنع يعالج الأشياء ، أما الحق ـ تبارك وتعالى ـ فيصنعها بكلمة كُنْ ؛ لذلك نجد فى أرقى فنادق الدنيـا أقـصى ما توصَّل إليـه العلم فى خـدمـة البشـر أنْ تضغطَ على زرٍّ معين ، فيُخرِج لك ما تريد من طعام أو شراب .

وهذه الأشياء بلا شكَّ مُعدَّة ومُجهَّزة مُسْبقاً ، فقط يتم استدعاؤها بالضـغط على زر خـاص بكل نوع ، لكن هل يوجـد نعـيم فى الدنيـا يحضر لك ما تريد بمجرد أن يخطر على بالك ؟ إذن : فنعيم الدنيا له حدود ينتهى عندها .

لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [يونس]

وكأن الحق سبحانه يقول لنا : لقد استنفدتم وسائلكم فى الدنيا ، وبلغتم أقصى ما يمكن من مُتَعها وزينتها ، فتعالوا إلى ما أعددتُه أنا لكم ، اتركوا ما كنتم فيه من أَسباب الله ، وتعالوا عِيشُوا بالله ، كنتم في عالم الأسباب فتعالواْ إلى المسبِّب .

وإنْ كان الحق سبحانه قد تكلم فى هذه الآية عن المداد الذى تُكتب به كلمات الله ، فقد تكلَّم عن الأقلام التى يكتب بها فى آية أخرى أكثر تفصيلاً لهذه المسألة ، فقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ .. (٢٧) ﴾ [لقمان]

ونقف هنا عند دقَّة البيان القرآنى ، فلو تصوَّرنا ما فى الأرض من شجر أقلام ، معَ ما يتميز به الشجر من تجدُّد مستمر ، وتكرُّر دائم يجعل من الأشجار ثروة لا حَصْر لها ولا تنتهى ، وتصوَّرنا ماء البحر مداداً يُكتب به إلا أنّ ماء البحر منذ خلقه الله تعالى محدود وثابت لاَ يزيد ولا ينقص .

لذلك لما كان الشجر يتجدَّد ويتكرَّر ، والبحر ماؤه ثابت لا يزيد . قال سبحانه : ﴿ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ .. (٢٧) ﴾ [لقمان] ليتناسب تزايد الماء مع تزايد الشجر ، والمراد سبعة أمثاله ، واختار هذا العدد بالذات ؛ لأنه مُنتَهى العدد عند العرب .

وقد أوضح لنا العلم دورة الماء فى الطبيعة ، ومنها نعلم أن كمية الماء فى الأرض ثابتة لا تزيد ؛ لأن ما يتم استهلاكه من الماء يتبخَّر ويعود من جديد فالإنسان مثلاً لو شَرِبَ طيلة عمره مائة طن من الماء ، فاحسب ما يخرج منه من بولٍ وعرق وفضلات فى عملية الإخراج تجدها نفس الكمية التى شربها ، وقد تبخرتْ وأخذَتْ دورتها من جديد ؛ لذلك يقولون : رُبَّ شربةِ ماء شربها من آدم الملايين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾

(قُلْ) أى : يا محمد ، وهذا كلام جديد ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ .. ﴿١١٠﴾ ﴾ [الكهف] يعنى : خُذُونى أُسْوة ، فأنا لست ملَكاً إنما أنا بشر مثلكم ، وحملتُ نفسى على المنهج الذى أطالبكم به ، فأنا لا آمركم بشىء وأنا عنه بنجْوَى . بل بالعكس كان ﷺ أقلَّ الناس حَظّاً من مُتَعِ الحياة وزينتها .

فكان فى المؤمنين به الأغنياء الذين يتمتعون بأطايب الطعام ، ويرتدُونَ أغْلَى الثياب فى حين كان ﷺ يمر عليه الشهر والشهران دون أنْ يُوقَد فى بيته نار لطعام[1] ، وكان يرتدى المرقّع من الثياب ، كما أن أولاده لا يرثونه ، كما يرث باقى الناس ، ولا تحل لهم الزكاة كغيرهم ، فحُرِموا من حَقٍّ تمتع به الآخرون .

لذلك كان ﷺ أدنى الأسوات أى : أقل الموجودين فى مُتع الحياة وزُخْرفها ، وهذا يلفتنا إلى أن الرسالة لم تُجْر لمحمد نفعاً دنيوياً ، ولم تُميِّزه عن غيره فى زَهْرة الدنيا الفانية ، إنما ميَّزتْه فى القيم والفضائل .

---

(١) عن عائشة رضى الله عنها أنها كانت تقول : كان يمر بنا هلال وهلال وهلال وما يوقد فى منزل رسول الله ﷺ نار . قلت : أىّ خالة ، على أى شىء كنتم تعيشون ؟ قالت : على الأسودين : التمر والماء . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٥٦٧/٥ - فتح) (٦٤٥٩/١١ - فتح) وكذا مسلم فى صحيحه (جـ ٤ - الزهد / ٢٨) .

ومن هنا كان يقول ﷺ : « يرد عليَّ - يعنى من الأعلى - فأقول : أنا لست مثلكم ، ويؤخذ منى فأقول : ما أنا إلا بشر مثلكم » .

والآية هنا لا تميزه ﷺ عن البشر إلا فى أنه ﴿يُوحَىٰ إِلَيَّ .. (١١٠)﴾ [الكهف] فما زاد محمد عن البشر إلا أنه يُوحَى إليه .

ثم يقول تعالى : ﴿أَنَّمَا إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ .. (١١٠)﴾ [الكهف] أنما : أداة قَصْر ﴿إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ .. (١١٠)﴾ [الكهف] أى : لا إله غيره ، وهذه قمَّة المسائل ، فلا تلتفتوا إلى إله غيره ، ومن أعظم نعم الله على الإنسان أنْ يكونَ له إله واحد ، وقد ضرب لنا الحق سبحانه مثلاً ليوضح لنا هذه المسألة فقال تعالى :

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً .. (٢٩)﴾ [الزمر]

فلا يستوى عبد مملوك لعدة أسياد يتجاذبونه ؛ لأنهم متشاكسون مختلفون يَحَارُ فيما بينهم ، إنْ أرضى هذا سخط ذاك . هل يستوى وعبد مملوك لسيد واحد ؟ إذن : فمما يُحمَد الله عليه أنه إله واحد .

﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ .. (١١٠)﴾ [الكهف] الناس يعملون الخير لغايات رسمها الله لهم فى الجزاء ، ومن هذه الغايات الجنة ونعيمها ، لكن هذه الآية تُوضِّح لنا غاية أسْمى من الجنة ونعيمها ، هى لقاء الله تعالى والنظر إلى وجهه الكريم ، فقوله تعالى : ﴿يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ .. (١١٠)﴾ [الكهف] تصرف النظر عن النعمة إلى المنعم تبارك وتعالى .

فمَنْ أراد لقاء ربه لا مُجرَّد جزائه فى الآخرة ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا .. (١١٠)﴾ [الكهف] فهذه هى الوسيلة إلى لقاء الله ؛ لأن العمل

الصالح دليل على أنك احترمتَ أمر الآمـر بالعمل ، ووثقتَ من حكمته ومن حُبِّـه لك فارتاحتْ نفسك فى ظلِّ طاعتـه . فإذا بك إذا أويْتَ إلى فراشك تستعرض شريط أعمالك ، فلا تجد إلا خيراً تسعَدُ به نفسك ، وينشرح له صـــدرك ، ولا تتوجَّس شراً من أحـد ، ولا تخاف عاقـبة أمر لا تُحـمَدُ عقـبـاه ، فمَنِ الذى أنعم عليـك بكل هـــذه النعم ووفّقك لهـا ؟

ثم : ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠)﴾ [الكهف] وسبق أن قُلْنا : إن الجنة أحـد ، فلا تشرك بعـبادة الله شـيئاً ، ولو كـان هذا الشىء هو الجنة ، فـعليك أنْ تسـمـوَ بغـاياتك ، لا إلى الجنة بل إلى لقـاء ربهـا وخالقها والمنعِم بها عليك .

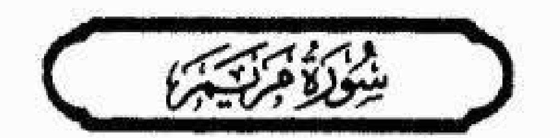
وقد ضربنا لذلك مثلاً بالرجل الذى أعدَّ وليـمة عظيمة فيها أطايب الطعـام والشراب ، ودعا إليـها أحـبابه فلمـا دخلوا شغلهم الـطعام إلا واحداً لم يهـتم بالطعام والشراب ، وسـأل عن صاحب الوليمـة ليُسلِّم عليه ويأنس به .

وما أصدق ما قالته رابعة العدوية :

كُلُّهم يَعبـدُونَ مــنْ خَــوْف ... نـار ويـروْنَ النَّجـاةَ حَظًّا جَزيلاً
أَوْ بأنْ يسكنُوا الَجنَان فـيـحظَوْا ... بقـصُـــور ويشْـرَبُوا سَلْسَبيـلا
ليـسَ لِـى بالجِـنَانِ والنَّارِ حظٌّ ... أنا لا أبـتـَـغِـى بحُـبِّـى بَـدِيـلا

وهذا يشرح لنا الحديث القـدسى : « لوْ لَم أخلق جنة وناراً ، أما كنتُ أهْلاً لأنْ أُعْبَد ؟ » .

فلا ينبغى للعبد أن يكون نفعياً حتى فى العبادة ، والحق سبحانه وتعالى أهْل بذاته لأن يُعبد ، لا خوفاً من ناره ، ولا طمعاً فى جنته ، فاللهم ارزقنا هذه المنزلة ، واجعلنا برحمتك من أهلها .


سورة مريم

